

المفارقة

في شعر أبي العلاء المعري

أطروحة تقدم بها
حسن عبد راضي

إلى مجلس كلية الآداب في الجامعة المستنصرية
وهي جزء من متطلبات نيل شهادة دكتوراه فلسفة
في اللغة العربية وآدابها

بإشراف
الأستاذ المساعد الدكتور
عدنان كريم رجب

٢٠١١ م

١٤٣٢ هـ

المقدمة

الحمد لله حق حمده، نحمده ونشكره ونستعين به، والصلاة والسلام
دائمين على خير خلقه وخاتم أنبيائه محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين
وصحابته المنتجبين، وبعد.

فمنذ أن ترجم الدكتور عبد الواحد لؤلؤة كتابي ميويك عن المفارقة في
نهاية العقد الثامن من القرن الماضي، والمصطلح لا ينفك ينتشر بسرعة،
ويلقى من لدن النقاد والدارسين عنايةً مطردةً، وربما كان للمفارقة
إغراءاتها من حيث تشربها في معظم الفنون الإبداعية، لا سيما الأدبية
منها، ولها كذلك انتشارها الواسع على نحو يجعل منها ظاهرة فنية،
تقترب من البلاغة في أشياء، وتبتعد عنها في أشياء، وفيها من الغموض
الساحر ما يجذب إليها الاهتمام والنظر.

والذي زاد في أهميتها واستقطابها للبحث، أن الدراسات كشفت عن أنها
نزعة إنسانية أصيلة موجودة لدى الإنسان، منذ بدء التاريخ، وهي ظاهرة
فنية لها وجودها الراسخ في معظم الآداب القديمة، لكنها كانت تتوارى
خلف مسميات تلك العصور، وتأخذ طابعها الحي من المنظومة
الاصطلاحية السائدة آنذاك، وقد شجع هذا الكشف على دراسة الظاهرة في
شتى الفنون الأدبية، الشعرية منها والنثرية، للوقوف على طبيعتها الفنية
والموضوعية، وتأثيراتها في الأدب المتسم بها، وما تحدثه من تغيير وما
تضيفه من عمق على أصعدة المعنى والصورة.

ولقد جاء اختيار الموضوع بعد أكثر من جلسة حوار مع أستاذي الدكتور
خالد علي مصطفى، وقد أستقر الرأي أخيراً على دراسة المفارقة في شعر
المعري لما ينفرد به من ميل شديد الوضوح إلى المفارقة عبر شقيها؛
التضاد والسخرية في مجمل حياته وتجربته الأدبية، ولما تشكله في شعره
خاصة من ظاهرة فنية بارزة، جعل منها وسيلته إلى نقد المجتمع والدولة
والنظام السياسي القائم آنذاك، وإبراز تناقضات الحياة بتسخير التناقض

نفسه وعرضه في صورة مفارقة تثير الضحك والبكاء في وقت واحد أحياناً.

وربما تواءمت المفارقة مع غايات المعري النقدية ذات المنحى الاجتماعي والأخلاقي، ولذلك بدا أنه وجد فيها ضالته، فصار ينوع في استخدامها، وفي طريقة عرضها على النحو الذي سيأتي تفصيله في الأطروحة.

ولا بد لنا هنا أن نوضح أننا وجدنا الباحثين مختلفين في تعريف المفارقة، أهي السخرية التي يقابلها مصطلح (Irony) اللاتيني، أم هي التضاد الذي يقابله مصطلح (Paradox) اللاتيني، وقد توصل البحث إلى أن نوعي المفارقة هذين موجودان في شعر أبي العلاء، وأن لا ضير من تقسيم المفارقات على قسمين؛ مفارقات تضاد، ومفارقات سخريّة، على وفق اجتهاد نتمنى أن يكون صائباً، بُني على معطيات من التاريخ النقدي للمصطلح من جهة، وعلى معطيات أخرى من تجربة الشاعر تفيد بأنه استخدم النوعين على نحو متقارب في الفاعلية وفي الأهداف.

وبناء على هذا التصور، فقد جاءت الأطروحة في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، وقد قسمنا التمهيد على مبحثين، جعلنا الأول منهما الموسوم بـ (ما المفارقة؟) للتعريف بالمفارقة وتاريخها ومظاهرها، والوقوف على التفريق الدقيق بين نوعيها آنفي الذكر، وما قاله فيها أدباء وفلاسفة ونقاد غربيون وعرب. أما المبحث الثاني فقد جاء بعنوان (أبو العلاء المعري .. مفارقة الكينونة) ولم نسع فيه إلى التعريف بالشاعر، فهو علم في رأسه نار، ولكن حاولنا تسليط الضوء على حياته بوصفها مفارقة تطبيقية كبرى، تشتمل على التضاد كما تشتمل على السخرية المرة، وذلك ما أسبغ تلك النزعة السوداوية المتشائمة على سيرته وآرائه الأخلاقية والفلسفية التي انتظمها شعره، وكيف كان ينظر إلى الوجود بمنظار المفارقة، ويحاول أن يعالج مشكلاته، كما تراءت له، بطريقة فيها حس المفارقة.

وجاء الفصل الأول الموسوم بـ (مفارقات التضاد) في ثلاثة مباحث، الأول منها بعنوان (رؤية التضاد في العالم) عرضنا فيه لرؤية الشاعر الراصدة للتضاد في العالم، وكيف التقت روافد العزلة والتشاؤم في حياته، مع ما لاقاه من عنت وفواجع أدت به إلى أن يتحول إلى راصد للتناقضات عامة، أي تلك الفلسفية منها، أو الاجتماعية والنفسية، وقد رأينا أن الوقوف على هذه القناعة سيكشف النقاب عن انعكاسات ذلك في شعره، وممارسته المفارقة في الأدب على نحو مطرد، وإن بدرجات متفاوتة في الشدة والسطوع، فجاء بعضها في سياق مفارقات التضاد البسيط، وبعضها الآخر في سياق التضاد العالي، وهذا تقسيم نص عليه ميويك، وأفدنا منه.

واستناداً إلى التقسيم السابق، فقد جاء المبحث الثاني ليفصل القول في مفارقات التضاد البسيط، التي تمثلت في مفارقات التنافر البسيط والمفارقة الرومانسية والمفارقة الدرامية. في حين جرى التركيز في المبحث الثاني من هذا الفصل على مفارقات التضاد العالي التي تمثلت في المفارقة الفانتازية والمفارقة الذهنية.

أما الفصل الثاني فعنوانه (مفارقات السخرية) وجاء في مباحث ثلاثة أيضاً، الأول منها بعنوان (مدخل إلى السخرية ومفاراتها) لبيان تاريخ السخرية في الآداب القديمة وحتى في النصوص المقدسة كالقرآن الكريم، وأهم مصادرها وعلاقتها بالهجاء، وغير ذلك. أما المبحث الثاني فقد جاء بعنوان (مفارقة السخرية من الذات) ذلك أن المعري دأب على السخرية من نفسه في سياق ما يسمى بالمفارقة السقراطية أو الاستخفاف بالذات، في حين جاء المبحث الثالث تحت عنوان (مفارقات السخرية من الآخر) لیسلط الضوء على هذا النوع من المفارقات.

وقد خضنا في الفصل الثالث مغامرة شيقة مع المفارقة التداولية، فقد درسنا في المبحث الأول الموسوم بـ (المفارقة و التداولية) علاقة المفارقة بالتداولية، وأين تلتقيان، ومدى إمكانية دراسة المفارقة من وجهة نظر تداولية بناء على القواسم المشتركة بينهما، وجاء المبحث

الثاني الموسوم بـ (المفارقة التداولية) الذي درسنا فيه ظاهرة الإضمار في نماذج المفارقة وفي التداولية، وكذلك بحثنا الأفعال الكلامية في شعر المعري. أما المبحث الثالث الموسوم (تطبيقات تداولية في شعر المعري) فقد درسنا فيه أربعة تطبيقات تداولية أخرى في شعر المعري، هي التواصل السيئ واستراتيجية المؤول والتواصل الإشاري الاستدلالي والاستلزامات الخطابية.

ثم جاءت الخاتمة التي فصلنا فيها أهم الاستنتاجات التي توصل إليها البحث، فقائمة المصادر والمراجع، وأخيراً ملخص البحث باللغة الانكليزية.

ولا بد من التنويه إلى أن المنهج الذي اتبعناه في دراسة المفارقة بشقيها (التضاد والسخرية) هو منهج تحليلي انتقائي، وليس إحصائياً، نظراً إلى التشعب الكبير الذي يميز هذا المفهوم، وعدم وجود تحديد واضح له في الأدبيات السابقة على كثرتها، أما في فصل التداولية فقد اعتمدنا منهجاً يجمع بين ثلاثة من أهم رواد النظرية ومؤسسيها هم أوستين وسيرل وغرايس، مع ميل إلى الأخير منهم الذي يبدو كأنه استدرك على المتقدمين ما فاتهم.

ولا بد لي أخيراً من أن أزجي عميق شكري وامتناني لأستاذي المشرف الدكتور عدنان كريم رجب الذي تابع كتابة الأطروحة مدققاً موجهماً، وقد حرص على تصحيح مسارها حيثما وجد بها زيغاً، وإسداء النصح والتوجيه في كل مرحلة من مراحل البحث، فجزاه الله عني وعن العلم خير جزاء المحسنين، وأشكر أساتذتي المناقشين الذين سأسْتضيء بما يبذرونه من ملاحظات سديدة، ومن مناقشات ستثري البحث وتقومه، والله أسأل أن يوفقنا جميعاً إلى ما فيه الخير والسداد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.